الأدب الإسلامي يمثل هويتنا الإسلامية

سهيلة زين العابدين حماد
- السعودية -

إن لكل أمة أدباً يعبر عن دينها، وعقيدتها، وفكرها، وموطنها، وآمالها وآلامها، وإنجازاتها، ولا نستطيع بأية حال من الأحوال فصل الدين والعقيدة عن الفكر والأدب، والأمثلة واضحة أمامنا، ولننظر إلى الأدب الإغريقي الذي يعده البعض قمة الآداب الإنسانية فقد قام المذهب «الكلاسيكي» على هذا الأدب، وكلنا يعرف أن الأدب الإغريقي قائم على عقيدة الإغريق الوثنية المبنية على تعدد الآلهة والصراع بين الإنسان وبين الآلهة، وبين الإنسان والكون.

ولننظر أيضا إلى الرومانسية فهي قائمة أيضا على المسيحية، إذ احتج شانوبريان على الكلاسيكية القائمة على تعدد الآلهة، وأعلن في كتابه العبقرية المسيحية أن الأدب ينبغي أن يُطبع بالطابع المسيحي، ومنذ ذاك الحين طبع الأدب الغربي بالطابع المسيحي بدلاً من الطابع الوثني الإغريقي.

وعندما جاءت الماركسية طبع الماركسيون أدبهم بالطابع الشيوعي الماركسي القائم على إنكار وجود الله، وإرجاع كل شيء إلى الطبيعة، والاهتمام بالجماعة على حساب الفرد، وألزم الأدباء بالواقعية الماركسية، والواقعية الاشتراكية إلزاماً من حكوماتهم وكل من لا يعبر عن عقيدة الحزب الشيوعي أو الاشتراكي ومبادئه يعد خائناً لبلده. لذا تجد أدب الدول الشيوعية والاشتراكية مصبوغا بصبغتها.

ولننظر أيضا إلى الوجودية فهي تقوم على إنكار وجود الله، وتأليه الإنسان لنفسه، باعتباره هو المرجعية لكل ما يفعل، فهو مسؤول أمام ذاته، والوجودية تقوم أيضا على عبثية الخلق والوجود، لذا نجد أنه غلب على الأدب الوجودي ظواهر الانتحار، كما اهتم الأدب الوجودي بالفرد على حساب المجتمع لأن الوجودية قائمة على الفردية.

وهكذا نجد أن الأدب في كل مذاهبه وفلسفاته الفكرية، ومراحله التاريخية قائم على الدين والعقيدة، فيوجد أدب إغريقي وثني، ويوجد أدب يهودي، ويوجد أدب مسيحي، ويوجد أدب ماركسي، وأدب اشتراكي، وأدب وجودي، وكذلك يوجد أدب فرويدي، الخ... فكل أديب يلتزم في أدبه بعقيدته التي يؤمن بها، فلو قرأت الآن لأديب يهودي فستجد أن أدبه لا يخرج عن نطاق عقيدته اليهودية، وتعليمات التوراة والتلمود معبراً عن مزاعمهم حول أرض الميعاد، وشعب الله المختار، وآمالهم في تحقيق دولة إسرائيل الكبرى التي يخططون لتكوينها، ولا تخرج نظرته إلى غيره من غير اليهود عن تلك النظرة المتعالية.. الخ.

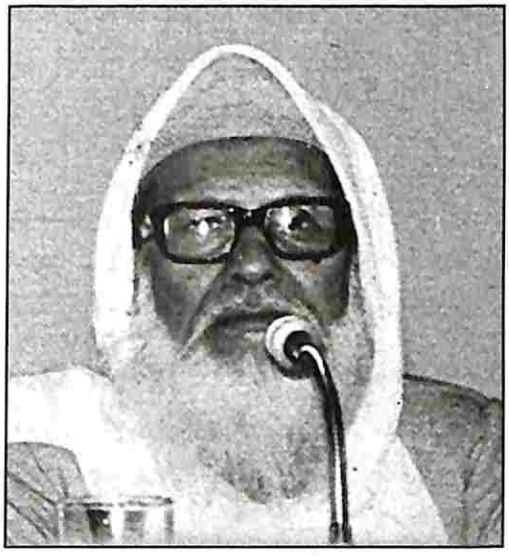

الشيخ / أبوالحسن الندوي

ولو انتقلنا إلى الأديب المسيحي نجد أن أدبه يعبر عن عقيدته، ولا نجد في أدبه مثلا مصطلحات إسلامية، فنظرته إلى حركة التاريخ قائمة على الخطيئة، وأن خطيئة آدم لم تغتفر، وملازمة لبني آدم، وكذلك إلحاقه تهمة الخطيئة الأزلية بالمرأة، كما نجده يستخدم المصطلحات: الأب، والابن، والروح القدس، والصليب، والصلب، والراهب، والرهبنة، البطريركية الخ..

ولكن اقرأ أدب الأديب المسلم الآن، ماذا تجد؟

إنك في الغالب لا تستطيع تحديد هوية هذا الأديب أو عقيدته، لأن أدبه أصبح في بعضه ملحدا ماركسيا، أو جنسيا إباحيا تظلله وثنية الإغريق وأساطيرهم، كما تجد فيه مصطلحات مسيحية كالصلب، والرهبنة، وإلحاق الخطيئة الأزلية بالمرأة. وأحياناً نجده يعبر عن معتقدات الفرق الباطنية التي تدعو إلى الحلول والتناسخ والإباحية. فأصبح أدبنا العربي يمثل خليطا من المذاهب والتيارات الفلسفية الغربية الحديثة من كلاسيكية، ورومانسية، ورمزية، وفرويدية، ووجودية، وسريالية، وبرناسية، وبنيوية،

وواقعية، كالواقعية الغربية، والواقعية الماركسية... إلخ.. فنحن نعيش الآن في فوضى عقائدية وفكرية.

أجل فنحن نعيش الآن في فوضى فكرية وعقائدية ترتب عنها انعدام الأمن في كثير من المجتمعات الإسلامية واختلال النظام في كثير من شؤونها المعاشية وبروز ظاهرة الإرهاب، والاغتصاب وانتهاك الأعراض، وتفشي المخدرات، كل هذا نتيجة بعدنا عن ديننا وفصله عن جميع شؤوننا في الحياة بما فيها الفكر والثقافة والأدب، واعتناقنا لفلسفات وعقائد ليست هي من ديننا في شيء تحت شعار حرية الرأي، والانفتاح على ثقافات العالم والأخذ منها الأخذ المطلق دون حد أو ضابط، وبلا مقياس أو معيار.

إن كل ما في الكون يسير وفق نظام يضبطه، فالكون له نواميسه وسننه فإذا ما حدث خلل في هذا النظام حدثت الزلازل، والبراكين والعواصف والفيضانات التي تدمر البيوت والمحاصيل، ويتساقط الألوف من القتلى أو الغرقى من جرائها، هذه الكوارث الطبيعية هي بلاشك تدمر وتهدم في لحظات ما بناه البشر في سنين.

والفكر جزء من هذا الكون لابد أن يكون هناك ضابط يضبطه، ويكبح جماحه لئلا يدمر صاحبه، ويدمر معه الآخرين، والضابط الذي يضبط الفكر هو العقيدة، فنحن لو فصلنا عقيدتنا الإسلامية عما نتلقاه أو نفكر فيه ونكتبه، فلن يكون هناك فارق بيننا وبين ماركس، وإنجلز، وسارتر وهيجل، ونيتشه، وفرويد، وديكارت، ودور كايم، وليفي شتراوس، ورولان بارت، وغيرهم، بل قد نجمع بين هؤلاء جميعاً رغم ما في فلسفاتهم من تناقض، ونعيش في فوضى فكرية، وعقائدية، كما هي حالنا الآن.

ثم لا ننسى أن البابوية في الفاتيكان وضعت مخططا لاقتلاع الإسلام وتنصير المسلمين، وأعلن هذا في المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني عام ١٩٦٥م، وقد أعلن بابا الفاتيكان خطته الخمسية لتنصير العالم عشية قدوم الألفية الثالثة، وذلك بالضغط على الدول النامية بالعمل على إسقاط ديونها مقابل التمهيد لتنصيرها، وما تراه الآن من محاولات تقسيم السودان إلى دولة مسيحية جنوبية، ودولة مسلمة شمالية، وما حدث لإندونيسيا من تقسيم تيمور إلى إقليمين مسيحي وإسلامي، وكلنا يعرف كيف كان التنصير نشطا في إندونيسيا في السنوات الأخيرة.

وبطبيعة الحال الصهيونية العالمية وراء هذا المخطط لتتخلص من الإسلام، وبالتالي يسهل عليها الانقضاض على المسيحية لتتمكن من السيطرة على العالم، لأن من مخططاتها في بروتوكولات صهيون تقويض الأديان وهدمها للسيطرة على العالم.

في حين نجد اليهود أكثر الناس التزاماً بدينهم، بل كل دعاويهم قائمة على ما جاء في توراتهم المحَرَّفة وتلمودهم، وانظر إلى مناهج التعليم في مدارسهم في إسرائيل تجد أنها مركزة على المواد الدينية لأن دولتهم قائمة على الدين اليهودي، ونجد رجال الدين اليهودي قد كثروا بشكل كبير حتى إنه في نيويورك وحدها يوجد ستون ألف حاخام يهودي، هذا العدد ليس مبالغاً فيه، فعندما أرادوا عقد مؤتمر لحاخامات يهود نيويورك لم يجدوا قاعة تستوعب هذا العدد الكبير فعقدوه في أحد الملاعب الرياضية.

في حين نجد أن الدنيا تقوم ولا تقعد عندما تردد كلمة «إسلام» أو «إسلامي» وتظهر عبارات الاحتجاج، وتكتب للأسف الشديد من بعض أبناء الإسلام المقالات والدراسات احتجاجا على أسلمة العلوم، ومن ضمنها الأدب، لأنهم يريدون إزالة الإسلام، وتغييب كلمة إسلام باستبدالهم بالإسلام كلمة الأصولية.

فأمام كل هذه التحديات أليس من حقنا نحن المسلمين أن نحافظ على هويتنا الإسلامية في أسلمة اقتصادنا الذي أصبح في بعضه رأسماليا، وفي بعضه اشتراكيا، وكذلك بالنسبة لأدبنا الذي غدا معظمه وثنيا ماركسيا، ووجوديا وإباحيا فها هو شاعر عربي مسلم يقول: الشيطان خالقنا ليجرح قدرة الله العظيم، وآخر يقول: المجد للشيطان لأنه قال لا... في وجه من قالوا نعم، أو ثالث يقول: أكره الله، أو يكتب قصيدة بعنوان «الإله الميت» وأخرى بعنوان «الإله الأعمى» وأديب كبير يجعل للفن إلها يسجد له ويستغفره، ويزعم أن الشيطان شهيد، ويريد التوبة، أو تلك التي تقول شكرا لآلهة الإغريق التي أنجبت سيزيف أو تلك التي تبني قصصها على الحلولية وتناسخ الأرواح. والأمثلة كثيرة لا حصر لها.

فهل مثل هذا الأدب يمثلنا نحن المسلمين؟

ثم أين الإبداع والجمال والإمتاع الروحي والقيم الجمالية في مثل هذا لأدب؟

وهل في إعلان كراهية الله الخالق، وفي تمجيد الشيطان وألهه الإغريق جمال وإبداع؟

ومما يؤكد أن هناك محاولات لهدم فكرنا ما أفصحته الكاتبة البريطانية فرانسيس ستونرسوندرز في كتابها من يدفع التكاليف؟

الصادر في يوليو عام ١٩٩٩م عن قيام الحكومة الأمريكية عبر وكالة المخابرات المركزية لإيجاد مدارس وتيارات ثقافية كاملة ومنها تيار الحداثة، ودعم مجلة الحوار العربية وغيرها، هل اتضحت أمامك الآن الصور لماذا يحارب الإسلام؟ والأدب الإسلامي ولماذا نصر نحن في رابطة الأدب الإسلامي على تأصيل مصطلح الأدب الإسلامي والتأكيد عليه؟

علام الاعتراض على أدب يحمل هويتنا الإسلامية؟

إن الأدب الإسلامي ليس بجديد، فهو موجود منذ ظهور الإسلام، وعلى مدى أربعة عشر قرنا الماضية، وإن كان في القرون الثلاثة الأخيرة بدأ يتوارى عن الساحة رويداً رويداً حتى غلب على أدبنا العربي الآن سمات الآداب الغربية، وفقد في معظمه هويته الإسلامية، فكان لابد من إعادة هذه الهوية إليه بتأصيل مصطلح الأدب الإسلامي، وهذا من حقنا كأمة إسلامية أن نطالب أن يكون أدبنا معبراً عن هويتنا الإسلامية.

ثم من قال: إن الأدب الإسلامي هو أدب الوعظ المباشر فقط؟ وأن أسلمة الأدب يعني إلغاء كل الآثار الأدبية العربية وغير العربية ما عدا بعض الآثار البسيطة مثل المدائح النبوية وغيرها؟

هذا مفهوم قاصر للأدب الإسلامي. فالأدب الإسلامي أوسع بكثير من هذا المفهوم الضيق المحدود.

إن الأدب الإسلامي هو «التعبير الفني الهادف عن الإنسان والكون والحياة وفق التصور الإسلامي».

والتصور الإسلامي تصور شامل لشمولية الإسلام، إذ شمل جميع نواحي الحياتين الدنيوية والأخروية، ولم يترك أمراً في حياة الإنسان إلا نظمه، وهو تصور متوازن لتوازن نظرة الإسلام للإنسان، هذه النظرة التي جمعت بين المادة والروح ولتوازن نظم الحياتين الدنيوية والأخروية، ولتوازن نظم الكون فلا خلل فيها. هو تصور سام لسمو الإسلام بالنفس الإنسانية، وعواطفها إلى مراتب عليا من الطهر والعفاف، دون أن يجردها من روحانيتها أو ماديتها، تنظمها وتوجهها الوجهة الصحيحة دون أن تنحرف أو تفقد صفتها الإنسانية، وهو تصور جمالي في الشكل والمضمون معا يستمد جماله من جمال الكون، وهو تصور إنساني لإنسانية الإسلام الذي احترم حقوق الإنسان وكرمه وصان جميع حقوقه بتشريعات عادلة يعجز الخلق أجمعين عن الإتيان بمثلها أو استيعاب دقائقها، كما نظّم علاقاته بالأمم ذات الديانات الأخرى.

فالتصور الإسلامي للكون والحياة والإنسان هو أشمل تصور عرفته البشرية حتى اليوم، إنه التصور الذي لا يأخذ جانبا من الوجود ويدع جانبا آخر، كما في المذاهب الأدبية الأخرى، وإنما يأخذ الوجود كله بمادياته وروحانياته، ومعنوياته، وكل كائناته، إنه التصور الذي لا يجعل الحس بمعزل عن الحياة المنبثة في أعماق الكون، بل يطلق الحس ليملأ الحياة في كل شيء في هذا الكون، فلا يجعله مادة جامدة، وإنما يجعله يتحرك ويحس ويتعاطف ويلتقي على شتى المشاعر والانفعالات.

محمد حسن فقي

لنتأمل معا التصوير الفني في القرآن الكريم نجد الآتي:

قوله تعالى: {**والنجم والشجر يسجدان**} لقد بث في النجم والشجر الحياة فجعلهما يسجدان للخالق شأنه، وكل ما في الكون قانت وساجد لله سبحانه وتعالى، ولو جاء أديب، وقال يسجد النجم والشجر لفلان، فهنا خرج عن نطاق التصور الإسلامي وخالفه، لأنه لا سجود إلا للخالق جلّ شأنه، فعندما قال توفيق الحكيم في قصة راقصة المعبد: إنه سجد لإله الفن. فقد خالف التصور الإسلامي.

وقوله تعالى: {**والصبح إذا تنفس**} فالصبح هنا يتنفس لهذه الحياة الوديعة الهادئة فهي تنفرج عنها ثناياه، وهو يتنفس فتتنفس معه الحياة، ويدب النشاط في الأحياء على وجه الأرض.

وقوله تعالى: {**يغشي الليل النهار يطلبه حثيثا**} فالخيال هنا يدور مع الليل هذه الدورة الدائبة في طلب النهار، فلا يستطيع له دركا، بل ترى الشمس والقمر والليل والنهار في سباق دائم، ولكن {**لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون**} بل ترى الليل يسري {**والليل إذا يسر**} فتحس سريانه في هذا الكون العريض، وتأنس بهذا الساري.

وقوله تعالى: {**ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض: ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين**} فهنا يخاطب السماء والأرض كعاقلين فتسرعان بالجواب قائلتين: أتينا طائعين، فالخيال هنا شاخص إلى الأرض والسماء تدعيان فتجيبان الدعاء.

وهذه هي الأرض هامدة مرة، وخاشعة مرة ينزل عليها الماء فتهتز وتحيا {**وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج**} وهكذا تستحيل الأرض الجامدة كائنا حيا بلمسة واحدة ولفظة واحدة.

هذا هو أشمل تصور للكون والحياة والإنسان في تاريخ البشرية فكل النظم والعقائد أخذت شيئا من هذه الجوانب المتعددة، ولم تأخذها كلها، فنشأ من ذلك قصور في التصور، وخلل في التوازن، وخلل في الإنسان، والإسلام وحده هو الذي شملت فكرته هذه الجوانب في شمول وتوازن واتساق، فإذا كان الإبداع يتطلب تصوير حقائق الوجود وانعكاسها في نفس المبدع بصورة فريدة لم يسبق لغيرهما تصويرها بتلك الصورة الجميلة المتقنة، وإذا كان الفن يتحدد بمدى المساحة التي تشملها الحقيقة التي يشير إليها العمل الفني أو يرمز لها من كيان الكون فإنه لا شك ولا ريب أن الفن والإبداع المتباينين عن التصور الإسلامي للخالق جل شأنه وللإنسان وللكون والحياة هو أرفع فن، وأروع إبداع تستطيع أن تنتجه البشرية، فكيف يزعم بعد ذلك زاعم أن أسلمة الأدب ستؤدي إلى تحويل الأدب من الإمتاع الروحي وتعميق الإحساس بالقيم الجمالية إلى الوعظ والإرشاد.

إن قمة الامتاع الروحي وتعميق الإحساس بالقيم الجمالية هي في الأدب الإسلامي بكل شموليته وجماليته وسموه وإنسانيته.

والأمثلة كثيرة على الأدب الإسلامي ولنأخذ أمثلة من أدبنا العربي المعاصر، من ذلك قول الشاعر السعودي محمد حسن فقي في قصيدة الشيخ والفتاة:

الحسن إن لم يحمه طهره
ظل مدى الدهر يعض البنان

وقوله أيضا في ذات القصيدة:

فلا تكوني وردة غضة
يقطفها القاطف قبل الأوان
يشمها حينا ويرمي بها
ذابلة ينفر منها العيان
كأنها أمست له بعد ما
أضاعت العفة بعض القيان
خادعها بالقول حتى انتشت
كنشوة الشارب خمر الدنان
ثم اجتباها واجتبى غيرها
ممن تزوجن بدون القران

ففي هذه الأبيات يقول الشيخ للفتاة أن لا تستمر في خطيئتها حت لا تبتذل نفسها وتبيعها لكائن من كان فتفرط في عفافها وطهرها، وتغدو كالقيان نتيجة انخداعها بقول ماجن، ثم يحذرها قائلا:

فحاذري سقطة دنيا الهوى
فإنها تفضي لدنيا الهوان

فهذه القصيدة تعد شعراً إسلاميا. ولو انتقلنا إلى القصص والروايات نجد أن أية قصة أو رواية تعالج مشكلة اجتماعية معالجة لاتخالف ديننا وقيمنا الإسلامية فهي تعد من الأدب الإسلامي إن كان كاتبها أديباً مسلماً، وإن كان غير مسلم يعد أدبا موافقاً للأدب الإسلامي.

فالأدب الإسلامي باختصار شديد هو: أدب الكلمة الطيبة التي شبهها الله جل شأنه بالشجرة الطيبة في قوله تعالى: {**ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون* ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار* يثبت الله الذين آمنوا بالقول**